

# أزمة الليبرالية في العالم العربي والإسلامي



محمد إبراهيم مبروك

مفكر إسلامي

## ملخص الدراسة

يشير واقع الليبرالية العربية إلى كونها الأفق الوحيد المطروح للهوية اللا إسلامية في هذه المرحلة، استناداً على الآخر (الغرب الأمريكي)، واستقواء به، والذي يمثل الطرف المقابل في واقع الاستقطاب التاريخي المطرد بين الإسلام وهذا الغرب الأمريكي.

ولليبرالية العربية ملامح تميزها عن غيرها، لعل أهمها الإبهام وتمييع المفهوم؛ إذ يتسم خطاب الليبراليين في العالم العربي والإسلامي بالإبهام والمراوغة في التعبير عن ماهية تلك الليبرالية التي يدعون إليها، كما أن الليبراليين العرب لا يقدمون ماهية لمذهب فلسفي محدد، أو رؤية عامة للكون، ولكن غاية ما نستطيع أن نلتسمه منهم هو بعض المفردات الفكرية الفارغة من المضمون والتي يدعون أنها تعبّر عن ليبراليتهم.

ورغم مناداة دعاة الليبرالية إلى الديمقراطية إلا أن الديمقراطية في مفهومهم واقعة تحت مجموعة من الشروط والتحفظات، أهمها هو ألا يؤدي تطبيق هذه الديمقراطية إلى صعود الإسلاميين إلى السلطة.

ولليبرالية تناقضات حاسمة مع الإسلام، وعلى ذلك فليس هناك لليبرالية أي إمكانية للعمل إلا عبر محاولة القضاء على الإسلام أولاً، ومن هنا لا يستطيع الليبراليون العرب عادة إخفاء كون الإسلام -أو النظام الإسلامي بلغة التمويه- هو العدو الرئيس لدعوة الليبرالية.

وأمام هذه التناقضات قدّم الليبراليون العرب اتجاهين: أحدهما يعمل على تقديم الإسلام كمنتج حضاري تاريخي، عليه أن يتجاوز مع متغيرات الواقع المعاصر، أما الاتجاه الثاني فصنّاعته نوع من التوفيق بين الإسلام والليبرالية فيما يسمى بالإسلام الليبرالي، وهو الاتجاه الأخطر والأشدّ رواجاً الآن.

كما يقدم الليبراليون العرب الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي الغربي على أنه النموذج الأمثل الذي يجب احتذاؤه في دولنا الإسلامية، رغم ما جره هذا النظام من فقر ومشكلات كبرى على الدول المسلمة التي حاولت السير على نهجه، ولنا في إندونيسيا خير مثال.

وإذا كان الليبراليون العرب يروجون إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية أقيمت على أساس ديني عميق، وعلى الرغم من ذلك فإنها حققت المثل الأعلى في التسامح من خلال تبنيها للعلمانية الليبرالية كمنهج حياة ونظام سياسي، فإن ذلك مردود عليه بنظرة فاحصة لتاريخ الولايات المتحدة؛ إذ يتضح أنه لم يكن هناك من الأساس تدين حقيقي لكي يكون هناك تعصب، حتى يكون هناك تسامح ليبرالي استطاع أن يحل مشاكله تلك.



# أزمة الليبرالية في العالم العربي والإسلامي



محمد إبراهيم مبروك

مفكر إسلامي

مدخل:

المعاناة الأساسية التي يواجهها الناقد لليبرالية في العالم العربي والإسلامي هي افتقار المنتسبين إليها إلى إنتاج مادة معرفية عميقة يمكن إقامة جدل منهجي حولها؛ حيث لا تسفر محاولات الاستقصاء في هذا المجال إلا عن مجموعة من المقالات المنشورة في الصحف وعبر مواقع الإنترنت، والموجهة بطريقة دعائية إلى الجمهور، وتفتقد للمضامين المحددة التي ينبغي ذكرها عن ماهية الليبرالية وتصوراتها ومعالها الأساسية.

والكتاب الذي صدر استثناء عن ذلك، هو كتاب (الليبراليين الجدد) للدكتور شاكرا نايلسي، لكنه لم يكن استثناء حقيقياً من ذلك لا في الشكل ولا في المضمون؛ فمن حيث الشكل فقد كان عبارة عن إيراد لعدد من المقالات في هذا السياق له ولغيره، ولم يخرج من حيث المضمون عما جاءت به المقالات الليبرالية بوجه عام من لغة خطابية دعائية.

يقول الدكتور الطيب بوعزة في هذا الصدد -وقد مر بنفس التجربة في نقد الليبراليين العرب-: «المفارقة الواضحة في نتاج هؤلاء الليبراليين العرب أنه حتى هذه اللحظة، أي بعد أزيد من خمس عشرة سنة على انهيار الاتحاد السوفييتي، وبدء بروز نجمهم في الفضاء الثقافي الإعلامي لم ينتجوا أي بحث محترم معرفياً، يُفصحون فيه عن فكرهم، بل اقتصر إنتاجهم على تسطير مقالات صحفية خفيفة، قراءتها تدفعنا أحياناً كثيرة إلى الاستفهام: هل هؤلاء الكُتّاب يملكون حقاً الإحاطة المعرفية بموضوعهم، وبالفلسفة التي يتبنونها، ويعملون على تسويقها وإذاعتها في الناس»<sup>(1)</sup>.

## واقع الليبراليين في العالم الإسلامي

### وما هي الليبرالية في العالم العربي والإسلامي؟

بعيداً عن واقع السجلات والشعارات الدعائية في المعترك الثقافي الراهن نرى أن الليبرالية العربية هي الأفق الوحيد المطروح للهوية اللا إسلامية في هذه المرحلة، استناداً على الآخر (الغرب الأمريكي)، واستقواء به، والذي يمثل الطرف المقابل في واقع الاستقطاب التاريخي المطرد بين الإسلام وهذا الغرب الأمريكي.

فلم تأت الليبرالية العربية كخيار عقلي ناتج عن الاجتهاد الفلسفي أو السياسي، وهي لم تأت كذلك كنتيجة للتطور

(1) نقد الليبرالية، ص ١٦٥-١٦٦.

جانبًا، ومن ثم فإن حالة التحلل الكامل من الهوية الإسلامية هذه لا يمكن بلوغها إلا من خلال الليبرالية المتحررة من كل القواعد، وهو الأمر الذي يتظاهر عليه الآن أعداء الأمة في الداخل والخارج.

**ولكننا على الرغم مما سبق نستطيع أن نذكر بعض الملامح لليبرالية العربية:**

### خصائص الخطاب الليبرالي في العالم العربي والإسلامي

#### الإبهام وتمييع المفهوم:

يتسم خطاب الليبراليين في العالم العربي والإسلامي بالإبهام والمراوغة في التعبير عن ماهية تلك الليبرالية التي يدعون إليها.

#### يقول الدكتور شاكر النابلسي:

«أما من طلب تعريفًا لليبرالية فنقول له: لا تعريف عامًا لليبرالية، إلا إذا خصصنا السؤال، وقلنا ما هي الليبرالية الأمريكية، أو الفرنسية أو الألمانية، أو المصرية أو المغربية إلخ؟ كما يجب تخصيص الفترة؛ لأن الليبرالية كأى مفهوم إنساني تتغير وتتبدل من فترة زمنية لأخرى، فما يُعتقد اليوم بأن له قيمته الليبرالية، ربما لن يصبح كذلك بعد قرن أو قرنين من الزمان»<sup>(١)</sup>.

#### ويقول في موضع آخر:

«هي متغيرة عبر التاريخ؛ لأن لكل مرحلة تاريخية ليبراليتها المميزة في سياقها الاقتصادي والاجتماعي، والسياسي والثقافي المختلف والمميز. والليبرالية هي ابنة الشارع والحياة قبل أن تكون كلمة في أسفار الفلسفة السياسية الإنسانية. والليبرالية ثدي التاريخ قبل أن تكون نظرية في أذهان المفكرين»<sup>(٢)</sup>.

(١) الليبرالية السعودية ليس كمثلها ليبرالية، صحيفة الوطن السعودية، عدد ٤ من رجب ١٤٣٠هـ.

(٢) هل لليبرالية السعودية فضائل وإيجابيات؟ صحيفة الوطن السعودية، ٢٠ من جمادى الآخر ١٤٣٠هـ.

الاقتصادي أو الاجتماعي الذي تمر به المنطقة كبديل أخير لسلسلة من الهويات المتعاقبة المناقضة للإسلام كالثيوية والعلمانية، والديمقراطية في ظل بروز الولايات المتحدة الأمريكية كقطب عسكري واقتصادي وحيد يحكم العالم، وظهور معالم التناقض بين الهوية الأمريكية الليبرالية المادية النفسية، والهوية الإسلامية الإيجابية المثالية الواقعية، بعد أن أسقطت تلك الهوية الأمريكية هويات العالم الأخرى، وهيمنت عليه، فيما سُمي بالعولمة، مما وضع التناقض بين الهويتين الأمريكية والإسلامية في حالة استقطاب مطرد.

ومن ثم كان هذا الاستناد للمنتميين للهوية اللا إسلامية على هذا الآخر الأمريكي، والاستقواء به من أجل فرض هويته اللا إسلامية (الليبرالية مرحليًا)، ولو من فوق ظهر الدبابات كما يدعو بعضهم، ومن شواهد هذا الذي نذهب إليه أن الكثيرين من دعاة الليبرالية اليوم كانوا هم أنفسهم دعاة للماركسية الشيوعية إبّان علوها الماضي، بل لقد شحذ الغالب الأعم منهم جهودهم في الدعوة إلى العلمانية في مرحلة تالية، وإلى وقت قريب كانت الدعوة إلى الديمقراطية هي الشغل الشاغل لهؤلاء، إلى أن انتهى بهم المطاف الآن إلى الدعوة إلى الليبرالية.

وبعد سقوط الماركسية فإن التخلي عنها لا يحتاج إلى تفسير؛ نظرًا لسقوطها، ولكن لم يتم التخلي عن العلمانية والديمقراطية، وإنما تم تضمينهما في الدعوة إلى الليبرالية مع تحفظات حاسمة بالنسبة للديمقراطية، فالليبرالية مازالت واجهة فضفاضة ومائعة، مقارنة بالعلمانية التي أثبتت الكثير من الدراسات تناقضها مع الإسلام، أما الديمقراطية فلم يلبث دعائها إلا قليلًا حتى تأكد لهم أن تطبيقها العملي سيؤدي إلى صعود الإسلاميين إلى السلطة، من خلال اختيار الجماهير لهم، كما أنها ليست أطروحة كافية لبلوغ حالة التحلل الكامل من الهوية الإسلامية التي تظل الكثير من مضامينها موجودة في عادات وتقاليد الشعوب الحاكمة للديمقراطية، حتى لو تمت تحيية أحكامها وقواعدها



المدة كان قد نُجِت»<sup>(٤)</sup>.

ويتضح من هذا الكلام المعنى المقصود، والذي هو بحق أهم مفردات فكر الليبراليين العرب الجدد.

**الليبرالية لا توافق على الديمقراطية إلا بشروطها:**

**يقول الدكتور أسامة الغزالي حرب:**

«الديمقراطية فقط باعتبارها حكم الشعب، أو عبارة أدق حكم الأغلبية، يمكن أن تؤدي ليس فقط إلى إمكانية وصول قوى لا ديمقراطية (شوفينية، أو عنصرية، أو متعصبة) إلى الحكم، وإنما الأخطر من ذلك أن تؤدي إلى الافتتات على حقوق (الأقليات) والأفراد، وهنا يثور السؤال: إذا كانت الديمقراطية تنطوي على ضمان حقوق الأغلبية. فمن يضمن حقوق الأقلية؟ وإذا كانت الديمقراطية تعني حق الشعب وسيادة الشعب ككل، فهل يعني ذلك سحق الفرد وذوبانه في الشعب أو الغالبية؟ هنا تحديداً يأتي الحديث عن الليبرالية.

صحيح أن الديمقراطية تنطوي على حق الفرد - كل فرد - في المشاركة الإيجابية في حكم بلده. ولكن الليبرالية تزيد على هذا بالتأكيد على حماية الفرد من طغيان الجماعة، والأقلية من طغيان الأغلبية! الليبرالية هي دعوة لاحترام مجال خاص للفرد. للإنسان. للمواطن. يتمتع فيه بحقوق وحرية لا يجوز لأي سلطة أن تنتهكها أو تتعرض لها»<sup>(٥)</sup>.

**النظام الإسلامي هو العدو الأساسي لليبرالية:**

ولكن ليس هذا فقط هو تحفظ الليبراليين على الديمقراطية، فالتحفظ الأكبر هو أن ينجم عن تطبيق هذه الديمقراطية صعود الإسلاميين إلى السلطة.

على الفرد من حيث رفايته وأمنه، وقدراته على الابتكار، وما يحركه من حوافز وقيم، وما يضمن ولاءه للأسرة أو الجماعة التي ينتمي إليها. فالفرد وعلاقاته هو الحقيقة التي ينطلق منها كل تقدم حضاري، ومن هنا كانت الحكمة القائلة بأن الحرية الفردية هي منبع الإبداع وأمّ الفضائل»<sup>(١)</sup>.

**ويتحدث الدكتور أحمد البغدادي عن الليبرالية فيقول:**

«لقد بدأت في مجال الاقتصاد، ثم بعد ذلك انتقلت إلى مجال الحريات وحق الإنسان في الاختيار لتفتح بعد ذلك على الحقوق الطبيعية، وأخيراً على حقوق الإنسان»<sup>(٢)</sup>.

**ويقول البغدادي أيضاً في مناسبة أخرى:**

«الإنسان الليبرالي ملزم - إذا ما تبني الليبرالية منهج حياة - أن يؤمن بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وأن يؤمن بل ويشرّع القوانين التي تضع هذه الحقوق موضع التنفيذ، وأن يؤمن بالحرية الفكرية والمدنية، وأن يكون مواطناً بالمعنى الصحيح والكامل للمواطنة»<sup>(٣)</sup>.

ولكن أهم مفردات الليبرالية العربية الجديدة هو ما ورد على لسان أحمد البغدادي وهو يتحدث منزعجاً في حوار صحفي عن حالة اليأس التي تعتريه بسبب عدم نجاح الليبرالية في الخليج؛ حيث يقول في انفعال شديد:

«تخيل أنني مثلاً بعد ٣٢ عاماً من التدريس في الجامعة، يأتيني أحد طلبتي ليكلمني عن الآخرة والجنة والنار. بالكاد أملك أعصابي. طيلة هذه العقود ندرس الديمقراطية والأيدولوجيات السياسية، وتطور الفكر الغربي، فلو أن صخرًا كنت ترمي عليه الماء طيلة هذه

(١) ديمقراطية ولكن أيضاً ليبرالية، المصري اليوم، ٢٣/٧/٢٠٠٧م.

(٢) موقع صحيفة الوقت البحرينية، الليبراليون ليسوا بهذه النصاعة.

(٣) لماذا فشلت الليبرالية عند العرب؟ موقع الملتقى، ٢١/١١/٢٠٠٦م.

(٤) الليبراليون ليسوا بهذه النصاعة: صحيفة الوقت البحرينية.

(٥) ديمقراطية ولكن أيضاً ليبرالية، المصري اليوم، ٢٣/٧/٢٠٠٧م.

يقول الدكتور أسامة الغزالي حرب في ذلك:

ولا تحجر على أي رأي، طالما لم يرتكب صاحبه ما يعاقب عليه القانون»<sup>(٣)</sup>.

وهذا من شواهد ما سنؤكد لاحقاً أن ليبرالية هؤلاء تتسع لكل شيء (بما في ذلك الشيطان نفسه) إلا مجرد الحديث عن الإسلام.

هذه المخاوف هي نفسها التي يرددها العالم الغربي. يذكر فريد زكريا رئيس تحرير مجلة النيوزويك أن القضية المعتادة عندما يزور أحد المسؤولين الأمريكيين

أحد الحكام العرب، ويوصيه بالديمقراطية والحرية أنه يجب عليه بقوله: «إذا أنا فعلت ما تريد يا سيدي؛ فإن الأصوليين الإسلاميين سيستولون على البلد. هل هذا ما تريدونه؟»<sup>(٤)</sup>

ويعلق على ذلك هو نفسه فيقول: «وأسوأ ما في الأمر أنهم قد يكونون على حق. إن كثيراً

من الحكام العرب في الشرق الأوسط توقيطيون أو فاسدون وجائرون، لكنهم مع ذلك أكثر ليبرالية وتسامحاً وتقبلاً للتعددية، مقارنة بما يرجح أن يكون البديل لهم»<sup>(٥)</sup>.

## هل الليبرالية مذهب فلسفي

### ورؤية متكاملة للحياة؟

والسؤال المطروح الآن:

هل الليبرالية مذهب فلسفي أو رؤية متكاملة للحياة كما يود ظاهر خطاب العلمانيين العرب أن يوحي إلينا بها؟

الواقع التاريخي يقول: إنه منذ حوالي قرن كامل يطلق على العالم الغربي بكل أنظمتها وتياراته وأضرابه مصطلح العالم الليبرالي.

«في حين أن المنطق الليبرالي يوجب الاعتراف بحق القوى السياسية كافة في التعبير عن نفسها، وتشكيل أحزابها، طالما أنها تحترم الدستور والقانون، بما في ذلك القوى الإسلامية. فإن لدى هذه الأخيرة حدوداً لا يمكن أن تتجاوزها (خاصة بتركيبها الراهنة) في تقبل كثير من القيم والمفاهيم الليبرالية المرتبطة بالمواطنة والدولة المدنية»<sup>(١)</sup>.

ولكن الذي يعنيه قبول هذه القوى الإسلامية للشروط التي يضعها الدكتور الغزالي هو فقدانها للصفة الإسلامية من الأساس.

وهذا الذي يقوله الدكتور الغزالي بتأنق شديد يعبر عنه كمال غبريال بفجاجة شديدة فيقول: «كان يمكن

أن تصل الجزائر لمصير إيران، لولا تدخل الجيش لمنع سقوطها في براثن الثيوقراطية عبر بوابة صناديق الاقتراع الديمقراطية، ولا ينبغي أن ننسى أن الديمقراطية في أئنا القديمة هي التي حكمت على سقراط بالموت»<sup>(٢)</sup>.

ليس هذا فقط، وإنما هو يريد أن يحرم الإسلاميين حتى من حق الحرية الفكرية، ومن ثم فهو يناصر إجراءات ساركوزي في اضطهادها الإسلاميين في فرنسا، وهو لذلك يلوم على الليبرالية الأوروبية التي يصفها بالمثالية السابقة؛ لأنها كانت تعطي الإسلاميين حرية التعبير عن آرائهم، يقول: «استحالت الليبرالية المثالية إلى ملجأ ومفرخة للفاشية الأصولية والإرهاب -وهذه هي صفة الإسلاميين جميعهم لديه-، وقد تم هذا تحت مظلة أن الليبرالية تتسع لجميع الأفكار،

(١) المرجع السابق.

(٢) الليبرالية الجديدة وفضاء يتشكل، الحوار المتمدن، العدد ٩٢٥، ٢٠٠٤/٨/١٤م.

(٣) الليبرالية الجديدة تمتد شمالاً، الحوار المتمدن، العدد ١٩١٩، ٢٠٠٩/٥/١٨م.

(٤) مستقبل الحرية: ص ١١٩ طبعة مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٩م.

(٥) المرجع السابق: ص ١٢٠.

لها في فلسفة لوك، فكيف يتفق ذلك مع الذهاب بأن لوك هو مؤسس الفكر الليبرالي؟

إن الإجابة عن ذلك تكمن في أن لوك كان يهدف من أفكاره السياسية في الأساس إلى التحرر من سلطة الكنيسة، وما رسّخته من أفكار حول نظرية التفويض

الإلهي للملوك، ومن ثم ذهب إلى

أن الحكام يستمدون سلطتهم من خلال عقد اجتماعي بينهم وبين الناس يتم تفويضهم فيه بالعمل على خدمة الخير العام للجماعة، ودعا إلى ضرورة أن تفصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية «فالسطة

التشريعية هي التي ينبغي أن تكون لها الكلمة العليا؛ لأنها مسئولة فقط أمام المجتمع ككل، ذلك المجتمع الذي تُعد هي ممثلة له»<sup>(٢)</sup>

ولكي يمنح لوك هذا العقد الاجتماعي إمكانية التصور فقد افترض أن الناس في الحالة الطبيعية قد ولدوا أحرارًا.

ولكن لوك لم يذهب إلى أكثر من هذا، فلم يقرر مثلاً بشكل حاسم أن يرفض سلطة الملوك، أو أن يدعو إلى الليبرالية الأخلاقية، وحتى لو صحت المحاولات الفلسفية التوفيقية بين مذهب لوك المعرفي وآرائه السياسية<sup>(٣)</sup> فإن نهاية ما يذهب إليه هو مقتضى ما يؤدي إليه العمل الفلسفي، وهو التحرر السياسي من سلطة الكنيسة، دون أن يعني ذلك السعي إلى تأسيس تيار ليبرالي سياسي واجتماعي مشابه للتيار الليبرالي الحديث.

وكان فولتير ربوبيًا من الناحية الفلسفية، ولم يدعُ إلى التحرر الكامل من سلطة الملوك، وقد كان الصديق الشخصي لعدد غير قليل منهم، أشهرهم

(٢) بريترا ندرسل، حكمة الغرب: (١١٥/٢).

(٣) انظر هذه المحاولات في (نقد الليبرالية) للدكتور الطيب بوعزة بما في ذلك محاولته هو نفسه.

أما من الناحية الفلسفية البحتة فإنه لا يوجد في المراجع الفلسفية التاريخية الشهيرة مذهب يسمى المذهب الفلسفي الليبرالي<sup>(١)</sup>. بل ولا يوجد فيلسوف يسمّى فيلسوف الليبرالية، كما يطلق على ماركس فيلسوف الماركسية، أو وليم جيمس فيلسوف البرجماتية، أو سارتر فيلسوف الوجودية، والاستثناء الوحيد من ذلك هو جون ستيوارت مل صاحب كتاب (الليبرالية)، الذي تناول فيه الليبرالية كاتجاه سياسي واجتماعي، وليس كمذهب فلسفي عام، ومن ثم فإن اعتباره فيلسوفاً لليبرالية

هو في واقع الأمر اعتبار مقيد بالجانب السياسي والاجتماعي فقط.

وتفسير ذلك أن المذهب الفلسفي يتطلب وجود نظرية المعرفة (Epistemology)، ومنهج بحثي استدلال، ورؤية تصورية للكون، هذا قبل الحديث عن أي نظريات أو مقولات لها في الاجتماع، أو السياسة أو الاقتصاد، وهو الأمر الذي تفتقده الليبرالية تمامًا، والذي يحدث أنه عند علو شأن فكرة ما؛ فإنه يتم سحبها على الماضي، رغمًا عن أنف الواقع التاريخي، الأمر الذي يغري بمشروعيتها بعد تجذيرها تاريخيًا، ومن هنا كان الحديث عن الفلسفة الليبرالية عند جون لوك، وفولتير، بل وهيجل أيضًا.

وجون لوك هو فيلسوف مادي تجريبي تقوم نظريته المعرفية على أسبقية الحس والتجربة الشعورية للفكر في بناء المعرفة، وعلى هذا الأساس فقد وجدت كل الفلسفات المادية -بما فيها الفلسفة الماركسية- أسسًا

(١) للاستزادة يمكن مراجعة ما يلي على سبيل المثال:

تاريخ الفلسفة الغربية: بريترا ندرسل.

حكمة العرب: بريترا ندرسل.

قصة الفلسفة: وول ديورانت.

تاريخ الفلسفة الحديثة: يوسف كرم.

تاريخ الفلسفة الأوروبية.



وهذا التوتر الذي أشار إليه توكفيل بوضوح سيكون «لازمًا ولا يمكن استئصاله» طالما استمرت حالة عدم المساواة التي نشأ عنها هذا التوتر، وستعنى كل محاولة لتوفير الكرامة المتساوية للمحرومين من الامتيازات تقليصًا لحرية أو حقوق الآخرين، خاصة حين تكون أسباب الافتقار إلى الامتياز نابعة عن البنية الاجتماعية، فكل مكان يعطي لطالب وظيفة من أفراد الأقلية، أو كل تعليم جامعي بها بمقتضى برنامج عمل إيجابي يعني ضياع مكان بالنسبة للآخرين، وكل دولار تتفقه الحكومة على التأمين الصحي القومي، أو رفاهية الشعب، يعني ضياع دولار على الاقتصاد الفردي، وكل محاولة لحماية العمال من البطالة أو الشركات من الإفلاس تعني تضيق مجال الحرية الاقتصادية؛ ذلك أنه ليس ثمة نقطة محددة أو طبيعة يمكن أن تتوازن عندها الحرية والمساواة، وليس ثمة سبيل إلى رعاية الاثنين في وقت واحد»<sup>(٤)</sup>.

ويظهر مما تقدم أنه لا يوجد مذهب فلسفي يسمى الليبرالية، وإن ما يقدم لنا عن ذلك هو خليط من فلسفات متباينة، لها بعض التوجهات الداعية إلى الحرية، ولو استقصينا ذلك في أغلب المذاهب والتيارات الفلسفية والدينية في التاريخ أجمع لوجدنا فيها مثل هذه التوجهات بما في ذلك الإسلام والمسيحية، بل وحتى الكونفوشيوسية والبوذية، ومن المستحيل أن يمثل ذلك مذهبًا فلسفيًا مستقلًا.

فإن قيل: إن المحور الفلسفي الذي تدور عليه الليبرالية هو مبدأ الفردية الإنسانية فإن الفلسفات مثل البرجماتية والفرويدية والوجودية وغيرها تقوم على نفس هذا المبدأ، ومن ثم يكون التساؤل هو إلى أي شيء يدعوننا هؤلاء تحديدًا؟!

من الواضح أنهم يتحدثون عن الحرية المطلقة المتحللة من كل قيد، وهذا لا يوجد عند أي مذهب فلسفي، وإنما يوجد فقط عند الشيطان.

جميعاً فريدريك الأكبر ملك بروسيا، وربما اقتضت ليبرالته على الدعوة إلى التحرر الفكري من سلطة الكنيسة؛ حيث كان يصرخ بكل سخرية وعنف: «إن لدي مائتي مجلد في اللاهوت المسيحي، والأدهى من ذلك أنني قرأتها وكأني أقوم بجولة في مستشفى للأمراض العقلية»<sup>(١)</sup>.

أما هيجل فقد كان على النقيض من لوك من حيث تقديره للفكر على التجربة الحسية، وكان يذهب إلى الحتمية الجدلية التاريخية بين الفكرة ونقضها، ومع ذلك فقد عمل فوكوياما في محاولة تأويلية منه على تأسيس نظريته الليبرالية في نهاية التاريخ، بناء على فلسفته من خلال قراءة توكفيل لها؛ حيث يذهب فوكوياما إلى أن «هيجل قد رأى في فلسفته نوعًا من تحول المسيحية بحيث لا تقوم على أساس الخرافة (بحسب تعبيره) وسلطان الكتاب المقدس، بل على أساس وصول العبد إلى المعرفة المطلقة والوعي الذاتي.. وإتمام المسار التاريخي لا يتطلب عند هيجل أكثر من تحويل المسيحية إلى مذهب دنيوي، أي ترجمة المفهوم المسيحي عن المسيحية إلى معنى هنا والآن»<sup>(٢)</sup>.

ولكن ما يقوله فوكوياما عن هيجل مهما بلغت تأويلاته من سخف<sup>(٣)</sup> لا يكفي لإخراج هيجل عن حتميته الجدلية إلى تبني تأسيس ما يُدعى بمذهب الليبرالية المعاصرة.

أما فوكوياما نفسه فإنه ينتهي في كتابه هذا إلى ما ينقض كل ما يبشر به العلمانيون العرب جماهير الأمة من أحلام وردية تقدمها لهم الليبرالية؛ حيث يقول: «يعني استمرار المظاهر الكبرى لعدم المساواة الاجتماعية حتى في أكثر المجتمعات الليبرالية، إكمالاً لاستمرار التوتر بين المبدئين التوأم، الحرية والمساواة اللذين تقوم عليهما هذه المجتمعات،

(١) نقلًا عن ول ديورانت، قصة الحضارة: (٢/١٩ ص ٢٠٥).

(٢) نهاية التاريخ: ص ٣٩.

(٣) راجع في ذلك كتابنا (الإسلام والغرب الأمريكي: نظرية في تفسير الصراع).

(٤) نهاية التاريخ: ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

التي يدعون إليها، فيكون المقصود في النهاية هو أنهم يدعون إلى الإباحية المطلقة، والشذوذ الجنسي، والدعوة إلى الإلحاد، ومن ثم فإن مشكلة المشاكل التي تواجههم والتي تعيقهم عن تحقيق ذلك هي الإسلام.

### تناقضات الليبرالية مع الإسلام

إن تناقضات الليبرالية الحاسمة مع الإسلام تبعث على التساؤل عن الدوافع القوية وراء النشاط المريب لليبراليين العرب، وعن الأهداف التي يبتغون تحقيقها، والجدوى من وراء ذلك.

كيف تتفق الليبرالية المتحررة من كل القواعد والقيود، -والتي تحيي في صيرورة دائمة كما يقولون هم أنفسهم- مع الإسلام، ذلك الدين المبدئي الشمولي ذي القواعد المحددة والشرائع المفصلة في كل شأن من شئون الحياة؟ إن الأمر لا يحتاج إلى تدقيق نظر لإدراك مدى التناقض بين هذا وبين ذاك، فعلى سبيل المثال كيف تتفق دعوة الليبراليين إلى التحرر التام في مجال العلاقات الجنسية مع الإسلام الذي ينظم هذه العلاقات بأحكامه المتعددة؟

ومن ثم فليس هناك لليبرالية أي إمكانية للعمل سوى محاولة القضاء على الإسلام أولاً، ومن هنا لا يستطيع الليبراليون العرب عادة إخفاء كون الإسلام -أو النظام الإسلامي بلغة الترميز- هو العدو الرئيس لدعوة الليبرالية، بمعنى أنه النقيض الوجودي لها.

إذن كيف ينشط الليبراليون العرب في هذا المحيط المعادي لهم المتمثل في شعوب المنطقة المتشربة بالإسلام إلا إذا كانوا مدعومين من القوى الخارجية التي يطالبونها بفرض الليبرالية، ولو من فوق ظهر الدبابات، بل ومدعومين من الكثير من الأنظمة الحاكمة التي يتزلفون إليها بجهودهم الحثيثة في الحرب على الإسلاميين، وترويجهم لنظرية كون هذه الأنظمة مهما كان استبدادها وفسادها فهي أفضل كثيراً من البديل الإسلامي المفترض؟! ومن ثم تفتح

والفكرة الوحيدة المحددة لدى الليبرالية هو أن الإنسان حر في أن يفعل ما يشاء، مادام لا يلحق ضرراً بالآخرين، والتي وردت في كتاب جون ستيوارت مل (الحرية). وأقول هنا: إنها محددة شكلاً فقط؛ لأنه عند البحث الفلسفي تجد أنها غامضة تماماً، فما هو معيار الضرر الذي يمكن إلحاقه بالآخرين؟ إن هذا يحتاج إلى مرجعية لتحديد هذا الضرر، والمرجعية مفقودة تماماً لدى الليبرالية، ثم من هم هؤلاء الآخرون؟ إن ذلك يحتاج أيضاً إلى مرجعية، بل إن الواقع الفلسفي الغربي ينكر وجود مرجعية محددة للإنسان ذاته، ويمكن مراجعة ذلك لدى تيارات الفكر المابعد حدثي المعاصرة.

أما مفردات الليبراليين العرب الدعائية التي تتحدث عن حرية العقيدة، وحقوق الإنسان، والمساواة بين الرجل والمرأة، وحقوق الأقليات، فهي مفردات تتحدث بها أيضاً أغلب التيارات السياسية القائمة، بما في ذلك التيار الإسلامي نفسه. فحرية العقيدة مكفولة في الإسلام؛ حيث ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وحقوق الإنسان جزء لا يتجزأ من العدالة الإسلامية، والمساواة بين الرجل والمرأة يدافع عنها الجميع، غاية ما في الأمر أن الإسلاميين يقولون: إن هذه المساواة لا تعني التماثل بين الرجل والمرأة؛ لأنه حتى من الناحية الواقعية البحتة فإن ذلك لا ينسجم مع الطبيعة البيولوجية لكل منهما.

أما بالنسبة لحقوق الأقليات فأني دارس للنظام السياسي الإسلامي يدرك أن ما يكفله الإسلام لهذه الأقليات من مشاركة سياسية واجتماعية أكبر بكثير مما تكفله لهم الديمقراطية العلمانية؛ لأن الحصص المخصصة التي يكفلها الإسلام لهذه الأقليات لن تستطيع أن تكفلها لهم الأغلبية الفاعلة في الديمقراطية العلمانية، مهما تحصنت بالحماية الليبرالية المائعة.

وبناء على ما سبق فإن هذه الدعاوى الليبرالية تؤول في النهاية إلى الغايات المتطرفة من المفردات

منه العقل والمصلحة كمرجعية وحيدة للإنسان في تصورات وسلوكه.

إنه مسخ مزيف يتفق مع العلمانية والديمقراطية، ومبادئ حقوق الإسلام الغربية، والعودة الأمريكية، ويتفق مع كل شيء في العالم إلا مع الإسلام الحقيقي نفسه.

وهكذا ينتهي الأمر إلى نفس غايات الاتجاه الأول؛ حيث لا يختلف عنه إلا في عمليات التأويل والتضليل فقط، والنموذج الأشهر لهذا الاتجاه يتمثل في الكاتب جمال البنا، هذا وللباحث كتاب له شهرته في هذا الموضوع.

ونكتفي في هذه النقطة بهذا القدر، وننظر في رؤية غربية تم طرحها حديثاً تؤكد هذا الاتجاه.

فهذا دييتر سنغاس يرفض في كتابه «الصدام داخل الحضارات» مفهوم «صدام الحضارات» الذي قدمه صمويل هنتجتون في كتابه الشهير، ويقدم بدلاً منه مجموعة

من المقترحات للتوفيق بين الليبرالية الغربية، التي يقدمها كمسلّمة مرجعية يجب الأخذ بها، والحضارات الأخرى التي يجب تطويعها لتتوافق مع هذه المرجعية.

ويرى دييتر سنغاس أن الإسلام بالذات هو الذي يعترض عملية التوفيق هذه، ومن ثم فهو يرى «أن مشكلة نقد العقل الإسلامي داخل نطاق العقيدة بدت مشكلة بغیضة على مدى تاريخ الإسلام. لذلك فإن المواقف «العقلانية التي ظلت هامشية على مدى هذا التاريخ يتعين اكتشافها من جديد، أو على الأقل تشيؤها ثانية لاستخدامها الآن كشواهد وبيانات تاريخية على وجود تأويلات بديلة.

وهذه عملية لها أهميتها حتى وإن قيل: إن تلك المواقف مواقف عقلانية داخل الجدل بشأن الإسلام

لهم كافة القنوات الإعلامية من تلفزيون وصحافة وفضائيات.

ومن مضحكات الأمور أن هؤلاء الفاشيين الإسلاميين كما يطلق عليهم الليبراليين الجدد لا يستطيعون بمختلف تياراتهم في أغلب الدول الإسلامية أن يصدروا صحيفة واحدة تعبّر عن آرائهم.

## هل يمكن لبرلة الإسلام؟

ماذا يفعل الليبراليون العرب أمام تناقضات الليبرالية الحاسمة مع الإسلام؟

لقد قدموا اتجاهين بهذا الصدد:

اتجاه يعمل على تقديم الإسلام كمنتج حضاري

تاريخي، ومن ثم عليه أن يتجاوب مع متغيرات الواقع المعاصر، ومجرد روح عامة غايتها مصلحة الإنسان المسلم، ومن ثم يترك لليبراليته -ولليبراليين طبعاً- تحديد هذه المصلحة، وهذا هو الاتجاه الذي يمثله من يسمون بالليبراليين الجدد، وبالطبع فإنه لا يجد قبولاً لدى أحد؛ لفجأته الشديدة، باستثناء قلة نادرة تريد التخلص من الإسلام أصلاً.

أما الاتجاه الثاني فصناعته نوع من التوفيق بين الإسلام والليبرالية فيما يسمى بالإسلام الليبرالي، وهو الاتجاه الأخطر والأشد رواجاً الآن.

وخلاصة هذا الإسلام الليبرالي أنه إسلام يحتفظ بالشكل -أو قل ببعض الشكل كما أثبتت التجربة-، ويفرغ الداخل من المضمون الذي يتم استبداله بالمفاهيم الليبرالية، وذلك من خلال سلسلة من العمليات المكثفة من التأويل. فهو إسلام يحتفظ بالشعارات وبعض الطقوس من الخارج، بينما يعبأ بمحتوى علماني من الداخل يُسقط كل ما له علاقة بالوحي والمقدس، والمرجعية الإسلامية، ويضع بدلاً

العقيدة الدينية، مع عدم الفصل التام والصارم بين الدين والدولة (الحادث فعلاً هو الاختلاف الوظيفي مع مساحة للتداخل) يمكن أن يكون مثلاً يوحى بحلول حديثة في المنطقة الإسلامية. وطبيعي أن هذا يستلزم أن نضع في الاعتبار قابلية تغير وتنوع الدول العلمانية القائمة»<sup>(٢)</sup>.

وفي النهاية فإن مسألة فضّ النزاع بين الإسلام والليبرالية الغربية هي مسألة تأويل عقلائي لنصوص تُسقط القواعد والحدود، وتسمح بقدر من التداخل بين الإسلام والعلمانية، ولكن المشكلة أن هذا في ذاته يعني إسقاط الإسلام بالكامل.

### هل الليبرالية الاقتصادية الغربية هي النموذج الذي يجب احتذاؤه؟

يقدم الليبراليون الجدد الاقتصاد الرأسمالي الليبرالي الغربي على أنه النموذج الأمثل الذي يجب احتذاؤه في دولنا الإسلامية، فهل يمثل هذا النظام النموذج الأمثل الذي يحقق الخير لنا؟ وهل هو الذي سيحقق الخير للفقراء كما يبشرون؟

إن الحديث عن هذا الموضوع يحتاج إلى شرح يطول، ولكننا سنكتفي هنا بالحديث عن نموذج واحد هو ما الذي فعله هذا الاقتصاد في دولة مثل إندونيسيا التي وصفها البنك الدولي بأنها تمثل «التلميذ النموذجي للعملة».

يقول المفكر العالمي الشهير جون بيلجر: «في هذا العالم غير المرئي من جانب معظمنا -نحن الذين نعيش في شمال العالم- هناك نظام متقدم للتهب أجبر أكثر من تسعين دولة على تنفيذ برامج «التعديل الهيكلي منذ الثمانينيات» لتوسع من الفجوة بين الغني والفقير

هي في الغالب بعض التفكير المنطلق أساساً من النص والإجماع، مما يعني أن أنصارها لم يكونوا عقلائين راديكاليين (بالمعنى المعاصر) علاوة على هذا، فقد كان هؤلاء العقلائيون بطبيعة الحال حريصين على الالتزام بنص الشريعة الإسلامية، وبالفهم الجوهري للمجتمع الإسلامي الحقيقي الصادق، ولم يكونوا معنيين بموضوع التعددية. بيد أن العقل داخل هذه المدرسة الفكرية أدى دوراً بارزاً يفوق ما كان قبل وبعد الفكر الحر في النص الجامد.

ووضّمت المجموعة الأصلية من (فلاسفة العقل) -وحرّي بنا التزام الدقة والحذر في استخدام المصطلح- للأسباب المذكورة سابقاً -كلاً من الفارابي وابن سينا، وابن رشد وابن خلدون، الذين ارتادوا هذا النهج دون التحفظات السابقة. وبعد هؤلاء ببضعة قرون نجد الطهطاوي والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا»<sup>(١)</sup>.

وطبعاً فإن قلة العلم بالفكر الإسلامي المعهودة في المفكرين الغربيين هي التي أسقطت دبير سنغاس في خطأ وضع ابن خلدون ورشيد رضا بين هؤلاء.

ويرى ديبتر سنغاس «أن العلمانية لا تتطابق بالضرورة -كما يظن بعضهم أحياناً- مع التجربة الفرنسية؛ من حيث التفكير في نزعة الفصل بين الدين والدولة، ولذا نرى أن العلمنة في المنطقة الإسلامية يمكن أن تأخذ الخبرة الألمانية كمثال لها أو التجربة الاسكندنافية أو البريطانية (إذ في هاتين الحالتين الأخيرتين توجد دور العبادة بما في ذلك دور عبادة تابعة للدولة). فالدول العلمانية القائمة كشواهد تجريبية سوف تخفي تماماً الصورة السيئة عن «دولة علمانية لا دينية» كالتى يتصورها الإسلاميون.

وإن قيام دول تسودها حقوق أساسية في حرية

(٢) المرجع السابق: ص ٨٨-٨٩.

(١) الصدام داخل الحضارات: ص ٨٣-٨٤.

والأخذية الرياضية التي تحمل ماركات عالمية مثل نيكى وأديداس وريبول، والتي يباع الزوج منها في شارع أكسفورد بلندن بمبلغ يصل إلى مائة جنيه إسترليني.

وفي هذه المصانع يعمل الآلاف من العمال الذين يكسبون ما يعادل ٧٢ نسًا أو نحو دولار واحد في اليوم، وهذا هو الحد الأدنى في إندونيسيا، والذي يوفر -بحسب ما تقول الحكومة- نصف تكاليف المعيشة، أي أنه الأجر الذي يكاد يسد الرمق، فالعمال في مصانع نيكى يحصلون على نحو ٤٪ من سعر التجزئة للحداء الذي يقومون بتصنيعه. وهو مبلغ لا يكاد يكفي حتى لشراء رباط الحداء، ورغم ذلك فإن هؤلاء العمال يعتبرون أنفسهم محظوظين؛ ذلك أن لديهم وظائف «النجاح الاقتصادي الديناميكي المزدهر» -عبارة تشاء أخرى من البنك الدولي- قد ترك أكثر من ٣٦ مليونًا من الإندونيسيين يعانون البطالة»<sup>(٣)</sup>.

ولو اتسع المقام لأوردت من الأمثلة والشواهد ما يؤكد أن هؤلاء الليبراليين الجدد يريدون سوقنا كالشياه إلى الذبح؛ إرضاءً لأسيادهم من الغرب، بدعوى اتباع تعاليم ليبراليتهم الاقتصادية.

### الدين الأمريكي والتسامح المزعوم

الاعتقاد الشائع عن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أنها تأسست على يد المتطهرين الإنجليز، الباحثين عن إقامة أورشليم الجديدة، الأمر الذي يعني أنها أقيمت على أساس ديني عميق، وعلى الرغم من ذلك فإنها حققت المثل الأعلى في التسامح من خلال تبنيها للعلمانية الليبرالية كمنهج حياة ونظام سياسي.

يقول جون ستيل جوردن في كتابه (إمبراطورية الثروة): «ليس من قبيل المصادفة أن تكون الولايات المتحدة أكثر الأمم تدينًا على وجه الأرض وأكثرها علمانية أيضًا»<sup>(٤)</sup>.

على نحو غير مسبوق على الإطلاق. وقد أطلق على هذا اسم بناء الدولة والحكم الجيد من جانب الرباعي المهيم على منظمة التجارة الدولية «الولايات المتحدة، أوروبا، كندا، واليابان»، وثلاثي واشنطن «البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، والخزانة الأمريكية»، الذي يهيمن حتى على أكثر الجوانب ضالة في السياسات الحكومية بالدول النامية»<sup>(١)</sup>.

### ولكن ماذا أحدث هذا النظام في إندونيسيا تحديدًا؟

يقول جونيلجر: «إن إندونيسيا التي لم تكن مدينة بشيء، وإنما كانت تتعرض لنهب ذهبها ومعارفها الثمينة، وأخشابها وتوابلها، وغير ذلك من ثرواتها الطبيعية من جانب سادتها الإمبرياليين الهولنديين، أصبح على كاهلها الآن أعباء من الديون التي يقدر إجماليها بمبلغ ٢٦٢ بليون دولار، وهو ما يعادل مائة وسبعين في المائة من إجمالي إنتاجها المحلي، وليس هناك دَيْن يماثل ذلك على مستوى العالم كله. إنه دَيْن غير قابل للسداد على وجه الإطلاق، إنه يبدو فجوة بلا قاع، والذين سوف يستمرون في سداد هذه الديون، ويدفعون حياتهم مقابل ذلك في بعض الأحيان، هم الناس العاديون»<sup>(٢)</sup>.

ولكن حتى في فترة الازدهار القصوى التي مرت بها إندونيسيا في أوائل التسعينيات، والتي اعتبرها البنك الدولي لذلك بالتلميذ النموذج للعولمة، ماذا كانت أحوال العمال فيها؟

يقول جون بيلجر الذي زار هؤلاء بنفسه لفترة طويلة: «العاصمة جاكرتا تحوطها مجمعات واسعة. تتوافر لها الحماية وحديثة نسبيًا تعرف باسم مناطق تنمية الصادرات اختصارًا، وتضم هذه المجمعات مئات من المصانع التي تقوم بتصنيع منتجات الشركات الأجنبية من الملابس التي يشتريها الناس في المحلات والمراكز التجارية في بريطانيا وأمريكا الشمالية وأستراليا،

(١) حكام العالم الجدد: ص ٢١.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق: ص ٧٦.

(٤) إمبراطورية الثروة، طبعة عالم المعرفة، ص ١١.

وتأسيس مستوطنة بروتستانتية في أرض كانت تحت رحمة التهديدات الأسبانية، ومن جملة ذلك إدخال الوثنيين في المسيحية. وهذا الهدف الأخير لم يحظَ في الواقع بكثير من الاهتمام، وبالتأكيد فإن إنجلترا لم ترسل مبشرين على الإطلاق»<sup>(٣)</sup>.

إذن فما هي حكاية التطهريين هذه؟ إن الحكاية تتعلق بمستعمرة واحدة أو أكثر هي نيوانجلاند التي يقول عنها جون ستيل: «لم تؤسس نيوانجلاند من قِبَل رجال مهتمين بالمغامرة والكسب، بل كان المبرر الأهم للاستقرار في تلك البقعة هو بناء «مدينة على هضبة»؛ حيث يمكن للقديسين -الذين كتب الله لهم النجاة- العيش بعيداً عن مضايقات الفساد والانحلال، متبعين وصايا الرب.

لكن تلك المدينة -بالتأكيد- مازالت إلى اليوم مشروعاً قيد التنفيذ بعد مرور نحو أربعمئة عام. وحتى القديسون أنفسهم كانوا في حاجة -على المدى القصير- إلى الطعام وشراء الحاجيات الأساسية، ودفَع أجرة عبور المحيط لتأسيس أورشليم الجديدة في ما أطلق عليه أحد التطهريين البيورتان «الفلاة المقفرة».

ولم يكن التطهريون على الأقل معارضين للازدهار والرخاء في هذا العالم مادامت عبادة الرب تأتي في المقام الأول. لقد اعتبروا ذلك في الحقيقة دليلاً على فضل الله، وإشارة على خلاص الفرد، وهكذا سيكتب تجار القرنين السادس عشر والسابع عشر -وكثير منهم تطهريون- في مقدمة دفاترهم المحاسبية العبارة التالية: «باسم الرب والريح»<sup>(٤)</sup>.

هذا هو تدين التطهريين المهاجرين، ولكن ما لا تفهمه العقلية الغربية أن التجار المسلمين العاديين جداً لو كتبوا على دفاترهم المحاسبية هذه العبارة «باسم الرب والريح» لعدوا شركين

وسنرى من خلال التدقيق التاريخي، ومن خلال كتاب جون ستيل نفسه وغيره من الكتب مدى مغلوطة هذا الاعتقاد، ومدى خطأ مقولته هذه، والتي قد تكون صحيحة في حالة واحدة، وهي النظر إليها من خلال المنظور البرجماتي للدين.

يذكر جون ستيل أنه «في النصف الثاني من القرن السادس عشر أنشئت كثير من الشركات الإنجليزية المساهمة لتسهيل التجارة في عدد من المناطق من بين هذه الشركات: شركة موسكو، وشركة المشرق، وشركة الهند الشرقية.. وفي العام ١٦٠٦م سمح الملك جيمس بترخيص إنشاء شركة فيرجينيا التي تأسست على أيدي مجموعة من تجار لندن»<sup>(١)</sup>.

فإذا كانت المستعمرات قد صنعتها مجموعة من الشركات التجارية، فمن ذا الذي عمل فيها؟ يجيب عن ذلك جون ستيل، فيقول: «كان المنتمون إلى تلك الفئات الاجتماعية -الهاربة من قبضة المجاعة، أو الفارة من عمدات البلد- هم الذين استقطبتهم شركة فرجينيا إلى جانب المغامرين من الأشراف الذين كانوا في الأغلب أصغر أبناء العائلات الإقطاعية»<sup>(٢)</sup>.

إذن فلقد تكونت المستعمرات البريطانية في أمريكا على أيدي عدد من الشركات التي أسستها مجموعة من تجار لندن، بجانب بعض النبلاء المغامرين الطامحين لتكوين ثروات طائلة، وعمل فيها الفارون من المجاعة، أو الهاربون من العدالة، أي أن المسألة منافع وأرباح، وليس فيها تطهريون ولا غيرهم.

**فإذا كان هؤلاء هم الذين أنشئوا المستعمرات فماذا كان الهدف منها؟**

يقول جون ستيل عن شركة فرجينيا: «نص ميثاق الشركة على أن هدف الشركة كان بناء أسطول تجاري لإنجلترا، أو زيادة عدد البحارة المتمرسين من خلال زيادة حجم تجارتها، واكتشاف المعادن الثمينة،

(٣) المرجع السابق: (٢٢/١).

(٤) المرجع السابق: (٤٢/١).

(١) إمبراطورية الثروة: (٢٣/١).

(٢) المرجع السابق: (٢٥/١).

بالله من وجهة نظر الإسلام.

ومن الواضح أن هذا التصديق لا يقوم على إيمان حقيقي، وإنما على أساس نفعي، ومن الطبيعي أن يكون على هذا الأساس جاء قوله: «إن الدين المسيحي هو أفضل دين مُنَحَّ للإنسان»<sup>(٢)</sup>.

والحقيقة أنه لم يكن هناك مؤمن واحد لا بالدين المسيحي أو بغيره في هذه السلسلة من الرؤساء الأمريكيين الذين يصفون بالآباء

الأوائل: فرانكلين - مادسون - جيفرسون - آدمز. ثم يتحدثون بعد ذلك عن التدين الأمريكي. لقد كان هذا يحدث في الوقت الذي يقررون فيه جميعاً أن الدين مفيد لنظام الدولة. أي دين؟ إنه الدين الشكلي على الطريقة البرجماتية.

تري ما الفرق بين قول جيفرسون: «لا يضرني أن يقول جاري أن هناك عشرين إلهاً أو أنه ليس هناك إله، فهو لا ينشل ما في جيبي، ولا يكسر رجلي»، وبين قول فيلسوف البرجماتية ولیم جيمس: «ليس من المهم أن يكون الله واحداً أو ثلاثة أو أكثر، المهم أن تتمتع بإلهنا لو كان لدينا إله». -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-.

يبدو أن فيلسوف البرجماتية الذي جاء بعد هؤلاء بحوالي قرن من الزمان لم يفعل شيئاً في تقرير نظريته عن البرجماتية الدينية، سوى أنه قرر ما كان موجوداً في أمريكا بالفعل.

والمقصود من كل ما سبق أنه لم يكن هناك تدين حقيقي لكي يكون هناك تعصب، حتى يكون هناك تسامح ليبرالي استطاع أن يحل مشاكله.

حقاً إنه كانت هناك فئات دينية صغيرة جداً كالمورمون والسبتيين والألفيين، ولكن هذه الفئات كانت لها أحداثها الدموية المعروفة.

فإذا كان الريح المادي هو الحاكم الأساسي في المستعمرات، فإن إطلاق روح التسامح الديني لا يتطلب تضحيات من أحد، ولا هو معجزة باهرة أفرزتها الفلسفة العلمانية الليبرالية السائدة، وإنما هو بمثابة السياق الطبيعي الذي تقتضيه المصالح التجارية القائمة.

يقول جيفرسون في كتابه «ملاحظات على ولاية فرجينيا»: «لا يضرني أن يقول جاري: إن هناك عشرين إلهاً، أو أنه ليس هناك إله، فهو لا ينشل ما في جيبي ولا يكسر رجلي».

ليس هذا فقط بل إن أول دستور وُضع في أمريكا، وهو دستور ولاية كاليفورنيا وضعه اللورد إيرل شافتسبيرى مع مساعده الفيلسوف الملحد الشهير جون لوك «الذي

استلهم كتاباته الآباء المؤسسون بعد قرن من ذلك التاريخ»<sup>(١)</sup>.

**يقول جيفرسون في كتابه «ملاحظات على ولاية فرجينيا»:**

«لا يضرني أن يقول جاري: إن هناك عشرين إلهاً، أو أنه ليس هناك إله، فهو لا ينشل ما في جيبي ولا يكسر رجلي»<sup>(٢)</sup>.

وعندما أصبح رئيساً قابله صديق وهو في طريقه إلى الكنيسة في صباح يوم أحد يحمل كتاب الصلاة الأحمر الضخم الخاص به، فقال له: «أنت ذاهب إلى الكنيسة يا مستر جيفرسون. إنك لا تؤمن بكلمة في هذا الكتاب».

فلم ينكر جيفرسون ذلك، وإنما قال له: «لم توجد أمة أو حكومة على الإطلاق من دون دين، ولا يمكن أن توجد. إن الدين المسيحي هو أفضل دين مُنَحَّ للإنسان. وأنا بوصفي كبير القضاة في هذه الأمة فلا بد من أن أكون قدوة في التصديق عليه».

(١) المرجع السابق (١/٢٨).

(٢) نقلاً عن غيرثود هيلفارب، الطرق إلى الحداثة، ص٢١٧، عالم المعرفة.

(٢) المرجع السابق: نفس الصفحة.

اليمين الليبرالي المتمثل في الرئيس ريجان في أمريكا ورئيسة الوزراء مارجريت تاتشر في بريطانيا.

وقد ذهب هايك إلى أنه «على الرغم من أن نُظُم السوق الحرة تضع الرفاهية والحياة الكريمة كأهداف لعملية صنع القرار أو كموجّه للتخطيط الاقتصادي إلا أن هذه النظم تحقق بالفعل مستويات معيشية أعلى من نظم الاقتصاد المركزي المخطط»<sup>(١)</sup>.

ويبرر هايك صحة هذه الادعاءات بأن اقتصاد السوق الرأسمالي «هو الذي يتيح للفرد أكبر فرصة وأكبر مساحة في الاستقلال الذاتي، ويذهب إلى الربط بين هذا الاستقلال الذاتي والحياد القيمي للسوق؛ ذلك لأن حيادية السوق وعدم فرضه لأهداف مسبقة على الأفراد هو الذي يمكنهم من تطوير ذواتهم بحرية وفق الوجهة التي يريدونها دون التقيد بقيم وأهداف مفروضة عليهم. كما أن اقتصاد السوق عند هايك يتيح التوصل إلى اتخاذ قرارات عقلانية؛ وذلك لأنه يتيح مجالاً للمقارنة بين البدائل المتاحة والفرص القائمة، وبذلك يمكن السلوك من تتبع منطق الأهداف والوسائل».

ولكن ادعاءات هايك هذه لم تنفع أمريكا في شيء فلم يلبث ريجان، ومن بعده بوش الأب أن أغرقا أمريكا في الديون، حتى جاء كلينتون بسياسة يمين الوسط، وأنقذ ذلك الوضع المتردي، ثم عادت الأزمة مرة أخرى مع عودة الليبرالية الجديدة على يد بوش الابن وعصبتها حتى استفحلت، وصنعت الأزمة الاقتصادية الكبرى التي تجاوزت أمريكا وأغرقت العالم أجمع.

والأهم من ذلك هو أن مشاكل التعصب الحقيقية هي المشاكل التي تتجم عن تعصب الأغلبية أو الأقليات الكبيرة، وليس الأقليات الصغيرة؛ لأن هذه الأخيرة

محكومة بواقع الحال بضغط الأكثرية عليها، وهو الأمر الذي لا تقع تحت سيطرته الفئتان الأخيرتان.

أما اليمين المسيحي الصاعد الجديد في أمريكا فإن تعصبه الحاقد ضد الإسلام أوضح من أي بيان.

بعد التجاء الرأسمالية الغربية إلى ليبرالية ديكنز للخروج من الأزمة الاقتصادية التي واجهته في عشرينيات القرن الماضي عاد إلى ليبرالية آدم سميث مرة أخرى، ولكن مع نسخها المعدلة الجديدة على يد فريدريك أوجست فون هايك (١٨٩٩ - ١٩٩٢م) فيما يسمى بالليبرالية النيوكلاسيكية

## واقع الليبراليين العرب في ظل تداعيات الأزمة العالمية التي تسبب فيها الاقتصاد الليبرالي

### هناك نوعان من الليبرالية الاقتصادية:

ليبرالية آدم سميث، والتي شعارها «دعه يعمل، دعه يمر»، والتي ترفض تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية، وتدعي أن هناك يدًا خفية وراء حرية السوق تعمل على التوازن بين جميع الأطراف، وتحقق الرخاء للجميع.

وبين ليبرالية ديكنز التي تدعو إلى تدخل الدولة من أجل حفظ توازن السوق، وتحقيق الحد الأدنى من الرعاية الاجتماعية، وهي في الحقيقة أبعد ما تكون عن أن تسمى ليبرالية لكن المجال يضيق عن تفسير ذلك.

وبعد التجاء الرأسمالية الغربية إلى ليبرالية ديكنز للخروج من الأزمة الاقتصادية التي واجهته في عشرينيات القرن الماضي عاد إلى ليبرالية آدم سميث مرة أخرى، ولكن مع نسخها المعدلة الجديدة على يد فريدريك أوجست فون هايك (١٨٩٩ - ١٩٩٢م) فيما يسمى بالليبرالية النيوكلاسيكية، وذلك مع صعود

(١) دكتور أشرف منصور، الليبرالية الجديدة: ص ١٧٤.



هؤلاء الليبراليون المدعمون من الداخل والخارج نجاحاً كبيراً، فها هو الحديث عن القراءات المختلفة للإسلام تنتشر في كل مكان، وها هي حالة الانحلال الأخلاقي تغزو الكثير من البلاد الإسلامية بطريقة ربما لم يسبق لها مثيل، وتربو نسبة الطلاق عن الخمسين في المائة في السنوات الأخيرة في بعض الدول.

أما بالنسبة للإسلام الليبرالي فحدث ولا حرج، فقد غدا هو المسيطر على أجهزة الإعلام الرسمية وغير الرسمية، وعلى الندوات والمؤتمرات والعديد من القنوات الفضائية، حتى الحجاب نفسه تم اختراقه في الأغلب الأعم في الكثير من الدول الإسلامية واختزله شيئاً فشيئاً إلى (الباديئات) والبنطلونات الملصقة بالجسد، مع تغطية الشعر أيضاً (!) .

فإذا كان الليبراليون العرب في أزمة بحكم مواجهتهم للإسلام، فإننا نحن المسلمين في أزمة لا تقل عنهم بحكم ما يحدث من تهاون وانحلال حولنا.

## فهل يؤثر هذا السقوط الليبرالي على واقع الليبراليين العرب الآن؟

إن هذا الكلام قد يكون صحيحاً في حالة أن المسألة لو كانت صراع أفكار أو حقائق، ولكن المسألة مسألة أبواب دعائية تسيطر على عقول الناس من خلال شتى أجهزة الإعلام التي أصبحت تحت سيطرتهم على امتداد العالم العربي؛ ليشكلوا أهواء الجماهير كما يريدون، وهم في ذلك مدعومين من أولي الأمر في الداخل والخارج، ورحم الله عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ حيث قال : «إن الله ليذع بالسلطان ما لا يذع بالقرآن».

كما أن المسألة عند النظر لمدى نجاح الليبراليين العرب لا تتحدد بالانتصار على الإسلام أو الهزيمة منه، وهو الخطأ الذي يقع فيه الإسلاميون، بل ووقع فيه أحمد البغدادي نفسه في حوارهِ المشار إليه؛ لأن الإسلام عقائدياً منتصر لا محالة، وإنما المشكلة هي في مدى ما تحققه الدعاوى الليبرالية من نجاح في إبعاد المسلمين أنفسهم عن الالتزام بتطبيق الإسلام على شتى مناحي الحياة، ومن هذا المنظور فقد حقّق



## معلومات إضافية

## مفهوم مصطلح الليبرالية:

الليبرالية مصطلح أجنبي معرب مأخوذ من (Liberalism) في الإنجليزية، و(Liberalisme) في الفرنسية، وهي تعني «التحررية» ويعود اشتقاقها إلى (Liberty) في الإنجليزية أو (Liberte) في الفرنسية ومعناها الحرية.

وهي مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام استقلال الأفراد، ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التفكير والتعبير، والملكية الخاصة، والحرية الشخصية وغيرها.

ولهذا يسعى هذا المذهب إلى وضع قيود على السلطة، وتقليل دورها، وإبعاد الحكومة عن السوق، وتوسيع الحريات المدنية.

ويقوم هذا المذهب على أساس علماني يعظم الإنسان، ويرى أنه مستقل بذاته في إدراك احتياجاته.

تقول الموسوعة الأمريكية الأكاديمية: «إن النظام الليبرالي الجديد (الذي ارتسم في عصر فكر التنوير) بدأ يضع الإنسان بدلاً من الإله في وسط الأشياء، فالتناس بعقولهم المفكرة يمكنهم أن يفهموا كل شيء، ويمكنهم أن يطوروا أنفسهم ومجتمعاتهم عبر فعل نظامي وعقلاني».

ويقول جميل صليبا: «ومذهب الحرية (Liberalism) أيضاً مذهب سياسي فلسفي يقرر أن وحدة الدين ليست ضرورية للتنظيم الاجتماعي الصالح، وأن القانون يجب أن يكفل حرية الرأي والاعتقاد».

ويكتنف مصطلح الليبرالية الكثير من الغموض، فيقول «دونالد سترومبيرج»: «والحق أن كلمة الليبرالية مصطلح عريض وغامض، شأنه في ذلك شأن مصطلح الرومانسية، ولا يزال حتى يومنا هذا على حالة من الغموض والإبهام».

وفي الموسوعة الشاملة: «تعتبر الليبرالية مصطلحاً غامضاً؛ لأن معناها وتأكيدها تبدلت بصورة ملحوظة بمرور السنين».

وتقول الموسوعة البريطانية: «ونادراً ما توجد حركة ليبرالية لم يصبها الغموض، بل إن بعضها تنهار بسببه». وإذا ذكر اسم «الليبرالية» فإنه كما يقول «رسل» في كتاب حكمة الغرب: «تسمية أقرب إلى الغموض ويستطيع المرء أن يدرك في ثناياها عدداً من السمات المتميزة».

ومن أهم أسباب غموض مصطلح الليبرالية: غموض مبدأ الحرية: حيث يعتمد مفهوم الليبرالية على الحرية اعتماداً تاماً، ولا يمكن إخراج «الحرية» من المفهوم الليبرالي عند أي اتجاه يعتبر نفسه ليبرالياً.

ولكن مفهوم الحرية مع سهولته، وكثرة كلام الناس فيه، لا يمكن تحديده وضبطه؛ لأن أصحاب الأفكار المختلفة في الحرية الليبرالية يعتمد كل واحد منهم على «الحرية» في الوصول لفكرته.

تقول الموسوعة البريطانية: «وحيث إن كلمة Liberty (الحرية) هي كلمة يكتنفها الغموض، فكذلك الحال مع

كلمة ليبرالي. فالليبرالي قد يؤمن بأن الحرية مسألة خاصة بالفرد دون غيره، وأن دور الدولة يجب أن يكون محدوداً، وأن الدولة باستطاعتها أو يمكن استخدامها بمثابة أداة لتعزيز الحرية».

وقد خرجت أفكار مضادة لليبرالية من رحم الحرية التي تعتبر المكون الأساسي لليبرالية مثل الفاشية، والنازية، والشيوعية، فكل واحدة من هذه المذاهب تنادي بالحرية، وتعتبر نفسها الممثل الشرعي لعصر التنوير، وتتهم غيرها بأنها ضد الحرية.

### تيار الليبراليين العرب الجدد:

هذا التيار حديث النشأة فقد نشأ بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفياتي، وزاد من حضوره في بداية القرن الحادي والعشرين، وبالذات بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م.

ويعتمد هذا التيار على تراث الفكر الليبرالي العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وخاصة فكر حزب الأمة (وهو حزب ليبرالي متعاون مع الاحتلال).

وتتلخص أفكارهم فيما يلي: «حرية الفكر المطلقة، وحرية التدين المطلقة، وحرية المرأة ومساواتها بالحقوق والواجبات مع الرجل، والتعددية السياسية، والمطالبة بالإصلاح الديني والتعليمي والسياسي، وفصل الدين عن الدولة، وإخضاع المقدسات والتراث للنقد العلمي، وتطبيق الاستحقاقات الديمقراطية».

كما يعتمد على الأفكار الجديدة التي ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين وهي: «محرابة المجتمعات الدكتاتورية العسكرية والقبلية والحزبية المتسلطة، والمناداة بإقامة المجتمع المدني، وإحياء دعوة الإصلاح الديني من جديد (وفقاً لمفهومهم الخاص) والتأكيد على العلمانية وفصل الدين عن الدولة».

### وقد تميز هذا التيار عن التيارات الليبرالية الأخرى بعدة أمور منها:

أولاً: الوقوف في صف المشروع الأمريكي في المنطقة، والمطالبة بما يريده ويسعى له مثل: تغيير مناهج التعليم، واستعمال القوة العسكرية لتغيير الأنظمة العربية، وفرض الديمقراطية عن طريق الاحتلال المباشر لهذه الدول، ولهذا فرحوا فرحاً كبيراً باحتلال أمريكا العراق، وقد صرح بعضهم بأنه يتلذذ بسماع صوت القنابل، ودوي الانفجارات في بغداد، وكأنها «موسيقى بيتهوفن».

يقول شاكر النابلسي: «لا حرج من الاستعانة بالقوى الخارجية لدحر الدكتاتورية العتية، واستئصال جرثومة الاستبداد، وتطبيق الديمقراطية العربية، في ظل عجز النخب الداخلية والأحزاب الهشة عن دحر تلك الدكتاتورية وتطبيق الديمقراطية».

وأنه لا حرج من الإتيان بالإصلاح على ظهر دبابة بريطانية أو بارجة أمريكية.

ثانياً: تطبيق مقاييس النقد الغربي على نصوص الوحي، وإخضاع المقدس للمنطق العقلاني، وهذا عندهم هو الأساس العلمي في معرفة الحقيقة، وصحتها.

ثالثاً: رفض العدا لغير المسلمين، واعتبار الموقف العدائي عند المسلمين ناتج عن ظروف سياسية واجتماعية معينة، وهي لم تعد قائمة الآن، ولهذا لا يصح أخذ هذه المواقف العدائية الموجودة في النصوص المقدسة،

ومهاجمة غير المسلمين وسفك دمائهم بناء على ذلك؛ لأن المصالح متغيرة، والمواقف متغيرة، فيجب تغيير هذه العقائد.

**رابعاً:** «اعتبار الأحكام الشرعية أحكاماً وُضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكاماً عابرة للتاريخ كما يدعي رجال الدين، ومثالها الأكبر حجاب المرأة وميراث المرأة... إلخ»، كما يقول شاعر النابلسي في مقاله «من هم الليبراليون العرب الجدد، وما هو خطابهم»، المنشور على موقع إيلاف الإلكتروني.

**خامساً:** رفض الارتباط بالإسلام لأنه ماضٍ، واعتبار الموجود عبارة عن فكر علماء الدين كما يعبرون وليس الدين الرسولي، وهو يقف عثرة ضد الفكر الحر، وميلاد الفكر العلمي.

**سادساً:** «الشعبوية» وكره العرب واتهامهم بكل النقائص، وذكر مثالهم ونقائصهم، واعتبار الدعوة للاستقلال مجرد شعارات غوغائية لا تمت للعقلانية بصلة.

ويتبع آراء هذا التيار يمكن ملاحظة أنه تيار عميل للدول الاستعمارية، وخاصة الولايات المتحدة، ولا يخرج عن آرائها، فالمقاومة الفلسطينية والعراقية - عندهم - إرهاب وتطرف، ولا يمكن حل الصراع العربي الصهيوني إلا بالمفاوضات على الطريقة الأمريكية، وضرورة التطبيع الكامل مع إسرائيل، والدخول في العولة واقتصاد السوق الحرة من أوسع أبوابها، وغير ذلك من الآراء، ولا تكاد تجد قضية سياسية إلا وتجد هذا التيار يتطابق في رؤيته مع الولايات المتحدة حتى على مستوى خلاف أمريكا مع الصين والهند، أو زيادة إنتاج النفط والموقف من الرئيس الفنزويلي «هوجو شافيز».

وهذا يؤكد أن هذا التيار عبارة عن احتياطي إعلامي يستعمله الأمريكيون لتسويق أفكارهم وسياساتهم، وجناح فكري ورافد ثقافي لمشاريعهم في المنطقة الإسلامية.

